الشوقيات
الجزء الأول

يبدأ الجزء الأول من (الشوقيات) وبه مقدمة الدكتور هيكل، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية، على نحو ما صنعت بالمقدمة التي صدر بها ديوان البارودي، ولكني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يدي، فأين ذهبت؟؟ وكيف رضيت أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء؟؟

لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضيع، فقد تأتي أيام نجهل فيها مآثر الشوقيات وما مر بها من ظروف، وللتاريخ الأدبي علينا حقوق، فما ذلك التاريخ؟

النسخة التي بين يدي ناقصة، ولكنها نفيسة جدا لأنها على نقصها مصححة بقلم (شوقي) في مواضع كثيرة، وليس ذلك بالمغنم القليل وأواجه ذلك التاريخ فأقول:

(كانت الصلة قويت بيني وبين (شوقي) في سنة ١٩٢٥ وكان شرع في طبع (الشوقيات) فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف:

(سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية)[1].

---

(١)الرسالة: ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤١ العدد ٤٤٣.

وبعد أيام تلطف فأهدى ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطه الجميل، لأكتب تقديمة ما أريد.

ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق، وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لا يزال في الميدان، وأسرعت فكتبت إليه خطابا قلت فيه:

إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء، لأني أخشى أن أقول فيها كلاما يصدني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد وهو -بارك الله في عمره- لا يكف عن مساورة الشعر والخيال في صباح أو مساء. وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع، فغضب أشد الغضب وقال: (ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت.. ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف؟؟ لو طلب (شوقي) مني ما طلب منك -وأنا خصمه- لاستجبت بلا تردد، فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي).

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من (الشوقيات) وبه مقدمة الدكتور هيكل ونادى المنادي بوجود الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية، وبرعاية الزعيم سعد زغلول.

ثم يقام الحفل بدار الأوبرا الملكية في التاسع والعشرين من نيسان ١٩٢٧ ويقول الشعراء والخطباء في (شوقي) ما يقولون بإطناب ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة (الشوقيات) فيرى من الواجب إصدار عدد خاص من

(السياسة الأسبوعية) لتكريم شوقي. ويدعى للاشتراك في تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث. ويرى (شوقي) من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان فيها مقالي.. ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة (الشوقيات).

(كانت السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر وفي سائر البلاد العربية وكان إصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف، ولكن (شوقي) لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص، فقد ظهرت عبارات تغض كثيرا أو قليلا من أمير الشعراء.

أخلاق شاعر الأخلاق [١]:

غضب شوقي على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية وكان شوقي إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب، فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زورا بوسم الجرائد والمجلات فكتب الدكتور هيكل في (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور:

(أخلاق شاعر الأخلاق) وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين (شوقي) وتوعده توعدا أليما، فقد نص على أن (شوقي) لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال..

---

(١) عنوان مقال الدكتور هيكل باشا.

ورأيت أن أرجع إلى الدكتور طه أستفتيه، فابتسم وقال: كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة (الشوقيات).

ثم ماذا؟؟ ثم ذهب (شوقي) الذي قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان، وبقي (شوقي) الشاعر الذي رثاه المازني يوم مات، بعد أن قال فيه ما قال.

دسائس صحفية:

فسد ما بيني وبين شوقي بعد اعتذاري عن كتابة مقدمة الشوقيات فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال، وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عني.. وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية، ولكنه تجاهل اسمي فلم يدعني إلى استقبال ذلك الشاعر الصناج.. وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين فحرضوني على إيذاء شوقي بمقال أو مقالين، وزعموا أن مال شوقي لا ينال بغير الهجاء..

وما لي أنا ومال شوقي أو غير شوقي؟؟

هل منحنا الله نعمة القلم الصوال.. لنبتز الأموال؟؟

إن شوقي حرمني فرصة التمتع بصوت طاغور وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقى الشوقية؟ شوقي شاعر مصر، وهو على جحوده إنسان وأستاذ الأساتذة في ميدان القصيدة فمن الواجب أن أحتفظ عهده إلى أن يموت، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمي أو لساني.

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع.

كيف يدرس شعر شوقي:

الغرض من هذه الدراسة هو توجيه من سيتبارون في مسابقة الأدب العربي، فماذا تقول في توجيه أولئك الشبان؟؟

أهم قصيدة في الجزء الأول من الشوقيات هي قصيدة (نهج البردة) ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابي في مجلة الرسالة بالمجان وإنما هي فرصة للدارسين الأعزاء فإن درسوا ما كتبت عن تلك القصيدة في ذلك الكتاب فسيقرءون أبحاثا تجوز بهم الصراط في أمان..

وهنالك مرجع ينفعهم في هذا الموضوع الدقيق وهوكتاب المدائح النبوية في الأدب العربي وفي ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد حسان إلى عهد شوقي..

فقد بدأ من (التشيع) ثم صار بلاغيا يسجل فنون (علم البديع) ثم عاد مدحا صرفا على لسان البارودي وشوقي والحملاوي، ومع تفاوت في أسلوب الأداء [1].

(١)انظر همزية شوقي في مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيري.

أما القصيدة الثانية فهي الأندلس الجديدة ويجب حفظها عن ظهر قلب، لأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث في تصوير التعاطف بين الأمم الإسلامية:

مقدونيا والمسلمون عشيرة ... كيف الخئولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا، وكان بعزهم ... وعلوهم يتخايل الإسلام
إذ أنت ناب الليث كل كتيبة ... طلعت عليك فريسة وطعام

وقد سما شوقي بهذه القصيدة سموا لا يدرك مداه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب. ولهذه القصيدة أهمية في تأريخ شاعرية شوقي، فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقي لم تتفتح إلا بعد نفيه في أيام الحرب الماضية، وهو قد نظم هذه القصيدة في عام ١٩١٢ قبل النفي بأعوام.

ثم تجيء قصيدة (انتحار طالب) وهي قصيدة طوقت بها وزارة المعارف بأطواق من حديد، فالطالب المنتحر:

ناشئ في الورد من أيامه ... حسبه الله أبالورد عثر؟؟
سدد السهم إلى صدر الصبا ... ورماه في حواشيه الغرر
بيد لا تعرف الشر ولا.. ... خلقت إلا لتلهو بالأكر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنيع الممقوت؟؟

قال ناس: صرعة من قدر ... وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب: بل من جنة ... ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون: جفاء راعه ... من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صعبته وطأة ... شدها في العلم أستاذ نكر

لا أرى إلا نظامـــا فاســـدا فكـــك العلـــم وأودى بـــالأسر
مـــن ضـــحاياه ومـــا أكثرهـــا ذلـــك الكـــاره في غـــض العمـــر

وتلك قصيدة نادرة، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب.. فموضوعها يكاد يتجدد في كل يوم وهي تنهى عن آفة من آفات الضعف في هذا الجيل.

التغني بالآثار المصرية:

فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن كبار الحوادث في وادي النيل. هذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب (الموازنة بين الشعراء) فقد نص على أن إسماعيل صبري هو أول شاعر سن مذاهب القول في وصف آثار الفراعنة بعد أن ثار الجدال بينه وبين خليل مطران في سنة ١٩٠٤، ثم تشاء المقادير أن يعرف المؤلف أن (شوقي) سبق صبري في التغني بتلك الآثار الخوالد في القصيد الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤.

فما ذلك القصيد؟؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من تحليق وإسفاف في أعوام تزيد على خمسة آلاف..

وهنا يظهر العجب العجاب فقد كان شوقي ناشئا يوم نظم في ذلك التاريخ ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف:

قـــل لبـــانٍ بنـــى فـــشاد فغـــالى لم يجـــز مـــصر في الزمـــان بنـــاء
لـــيس في الممكنـــات أن تنقـــل الجبـــا ل شـــما وأن تنـــال الـــسماء
أجفـــل الجـــن عـــن عـــزائم فرعـــو ن ودانـــت لبأســـها الآنـــاء

شـــاد لم يـــشد زمـــان ولا أنـــشـ ـــــأ عـــصر ولا بنـــى بنـــاء
هيكـــل تنثـــر الـــديانات فيـــه فهـــي والنـــاس والقـــرون هبـــاء
وقبـــور تحـــط فيهـــا الليـــالي ويـــواري الإصـــباح والإمـــساء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقي مكانة في وصف آثار الفراعين.

لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب فما رأت عيني مثل ما ترك الفراعين بوادي النيل.

الحرب العثمانية اليونانية:

هي حرب وقعت في عهد السلطان عبد الحميد ولم يذكر الديوان تاريخها بالضبط. ولا اتسع وقتي لتحقيق ذلك التاريخ، وأين من يصدق أني أكتب هذه الصفحات وأنا في قطار الصعيد؟؟

وهي إحدى قصيدتين اعترف بهما حافظ بشاعرية شوقي، ولم يكن حافظ يعترف لشوقي بشيء ولا كان شوقي يعترف لحافظ بشيء.. وآه ثم آه من تحاسد النظراء، اعترف حافظ بقيمة البائية:

بـسيفك يعلـو الحـق والحـق أغلـب وينـصر ديـن الله أيـان تـضرب

اعترف حافظ بقيمة هذه البائية في كتاب ليالي سطيح ولا أعرف الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب فعهدي بقراءته يرجع إلى زمن بعيد.

أما القصيدة الثانية فهي بائية شوقي في (توت عنخ آمون) وكان حافظ يحفظ هذه البائية وقد أنشدنيها مرات، وكان له في إنشادها ترجيع معروف..

كانت البائية فتنة العصر الذي ظهرت فيه، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب، وراويها في هذا اليوم هو الأستاذ محمد سعيد لطفي، وله بها هيام وغرام، فهو لينشدها كلما لاحت فرصة للحديث عن شوقي..

اقرءوا هذه البائية (يا شباب اليوم) لتعرفوا كيف نستهين بما ينظم الأطفال من الشعر في هذه السنين العجاف..

اقرءوا هذه البائية واحفظوها، فهي من آيات الشعر الحديث..

وما السيف إلا آية الملك في ... وما الأمر إلا للذي يتغلب
فأدب به القوم الطعان فإنه ... لنعم المربى للطغاة المؤدب
تنام خطوب الملك إن بات ساهرا ... وإن هو نام استيقظت تتألب

تكليل أنقرة وعزل الأستانة:

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول، بعد حوادث تشيب ناصية التاريخ وتصور عزة الترك بأنقرة في عهدهم الجديد.

وفي هذه القصيدة توجع شوقي لعزل استامبول واعتذر عن أبنائها الأماجد، فما نقلوا مركز الملك إلى أنقرة إلا رعاية لخطة من خطط الدفاع عن البلاد..

لو أن سلطان الجمال مخلد ... لمليحة لعذلت من عذلوك

خلعـوك مـن سـلطانهم فـسليهم ... أمـن القلـوب وملكهـا خلعـوك
لا يحزننـك مـن حماتـك خطـة ... كانـت هـي المـثلى وإن سـاءوك
أيقـال فتيـان الحمـى بـك قـصروا ... أم ضـيعوا الحرمـات أم خـانوك؟
وهـم الخفـاف إليـك كالأنـصار إذ ... قـل النـصير وعـز مـن يفـديك
المـشتروك بـما لهـم ودمـائهم ... حـين الـشيوخ بجبـة بـاعوك
هـدروا دمـاء الذائـدين عـن الحمـى ... بلـسان مفتـي النـار لا مفتيـك
شربـوا عـلى سر العـدو وغـردوا ... كـالبوم خلـف جـداول المـدكوك
لـو كنـت (مكـة) عنـدهم لـرأيتهم ... كمحمـد ورفيقـه هجـروك

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ما وقع من رجال الدين في استامبول، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكماليين طاعة للحلفاء، وكانوا احتلوا استامبول ولم يجلوا عنها بعد ذلك طائعين وإنما أكرهتهم السيوف الكمالية على الجلاء..

والشاعر يجعل انتقال أتاتورك ورفاقه من استامبول إلى أنقرة شبيها بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه من مكة إلى المدينة.. وهو تشبيه على جانب من الجمال.

انتصار الأتراك في الحرب السياسية:

ثم يلتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقي يرجع إلى تمجيد أتاتورك من جديد بقصيدة بائية على غرار بائية ابن تمام في فتح عمورية، وقد تلاعب فيها بالمعاني وجال في فنون القول كل مجال..

كان عصمت باشا مندوب الأتراك في مؤتمر لوزان، وكان رجلا ضعيف السمع لا يصل إليه الصوت إلا بالصياح، فجعله شوقي:

أصم يسمع سر الكائدين له ... ولا يضيق بجهر المحنق الصخب

والذي يقرأ أخبار الحرب في هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال وقد سبق شوقي كفه هذه الأيام فقال في انسحاب اليونان:

جد الفرار فألقى كل معتقل ... قناته وتخلى كل محتقب

يا حسن ما انسحبوا في منطق ... تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب

وكان ساسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة في بلاد الترك فقال شوقي:

هم حسنوا للسواد البله مملكة ... من لبدة الليث أو من غيلة

وأنشئوا نزهة للجيش قاتلة ... ومن تنزه في الآجام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالا في جريدة الاتحاد أراد من المقال التهوين من شأن هذه البائية، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين؟؟

رحالة الشرق:

وهذه قصيدة عينية قالها شوقي في تكريم الرحالة محمد حسنين باشا. كان استكشف واحتين في الصحراء اللوبية، ويضيق المقام عن شرح ما في هذه القصيدة من أغراض، ومع هذا لا يفوتني أن أدل الدارس على سجية شوقي في

الجنوح إلى التأمل العميق من حين إلى حين وهلّ وازن أحد بين الصحراء والحياة على نحو ما وازن شوقي بينهما إذ يقول:

كم في الحياة من الصحراء من ... كلتاهما في مفاجاة الفتى شزع
وراء كل سبيل فيهما قدر ... لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
فلست تدري وإن كنت الحريص ... تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأنس عند الصحو فاجئة ... من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وإن قدرت مجتهدا ... متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل ... أن الدليل وإن أرداك متبع

والبيت الأخير من وثبات الخيال.

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين القاهرة والمنيا ولن أنظر فيها بعد ذلك. فليبلغها القارئ على هواه بالحمد أو بالملام وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها؟

أثنيت على شوقي مرات وأنا أراجع الشوقيات ثم لمته مرة أو مرتين.

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثاني فما كان ضره لو أرخ جميع القصائد ونص على جميع المناسبات ليتمثل القارئ صور البواعث الروحية والسياسية؟؟

قصائد شوقي تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل، ولكن القراء لن يروها خليقة بهذا الوصف إلا إذا شرحت مناسباتها بإسهاب فأين من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات؟؟

obeikandl.com

ثم أقول: إن الشوقيات زادت إيمانمي بمجد بلادي فقد امتطيت القطار وأنا متخوف من ضجر الطريق، وما هي الا لحظة حتى كانت الشوقيات وحيا يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فنون..

ليت شعري والدهر حرب بينه ... وأياديه عندهم أفياء
مالذي داخل الليالي منا ... في صبانا ولليالي دهاء

في هذه اللحظة أشعر بالندم على أني ركبت القطار السريع، ولم أركب القطار القشاش وهو القطار الذي يقف على جميع المحطات، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء؟؟ وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية وقد بلغ عددها ٥٣٢.

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف فلا يكاد المسافر يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ولأهلها تاريخ وتواريخ.

هذه منارة تدل على مسجد، فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كانت لها أياد بيض في حفظ العلوم الإنسانية؟؟

ذلك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب للحبيب.. فأين من يذكر أن الفلاح المصري قد يكون أقرب الناس من الله، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران؟؟

وهل يستطيع أحد أن يقنع الفلاح المصري بأن الجنة أجمل من أرضه الغالية؟؟

ذنبك مغفور -أيها الفلاح- فاعص الله كيف شئت في انتهاب أرض جيرانك فذلك شاهد بأنك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد.

ثم ماذا؟ ثم أذكر أن هذا الكلام يخرج عن موضوع هذا المقال. وإني سأطيل وسوف أصل إلى المنيا بعد لحظات وأن التمادي في الثرثرة أمر غير مقبول:

وما ذنبي إذا فتنتني بلادي؟؟

أمـــن الإثـــم هتـــافي بـــالجمال ... في بـــلاد كـــل مـــا فيهـــا جميـــل
لـــو بعينـــي نظـــر اللاحـــي وجـــال ... لـــرأى الفتنـــة في كـــل ســـبيل

حار الناس في تعليل التفاوت بين شوقي وحافظ، لعرفانهم بأن (حافظ) كان أذكى من شوقي بمراحل طوال، فهل آن لهم أن يعرفوا أن (شوقي) تقدم لأنه كان من أكابر الملاك في هذه البلاد، وأن حافظا تخلف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان؟؟

ما أنا وما هذا الكلام؟؟ هي ثرثرة لا تليق برجل منَّ الله عليه بركوب قطار الصعيد وهو قطار يساير نهرا بين جبلين..

وتلك حال توحي بإعزاز السرعة والقسوة واللين، ومن هذه العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص؟؟

أحبك -يا وطني- أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول.

لم يعان أحد من الظلم في وطنه مثل ما عانيت فما زادني ذلك الظلم إلا عرفانا بجمال وطني، وهل رأيتم جميلا غير ظلام؟؟

قطار الصعيد في ١٧/ ١٢/ ١٩٤١

زكي مبارك

obeikandl.com